القيم الإنسانية المتضمنة في النصوص الجزائرية المقررة في أدب الطور الثانوي

د. يوسف العايب جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

ملخص :

أثبت التاريخ أن الأديب العربي عموما مرتبط بقضايا أمته ارتباطا وثيقا ، فكلما تعرضت أمته لأزمة ضاعف من تعبيره عن هويته الوطنية و القومية على حدّ سواء ناسيا همومه الذاتية منصهرا في هموم أمته .

و تأتي هذه الدراسة لتسلّط الضوء على هذه الرؤية من خلال مناقشة القيم الإنسانية التي يزخر بها النص الأدبي الجزائري في علاقتها بمقوّمات و بواعث الهوية الوطنية انطلاقا من بعض النصوص الأدبية المقرّرة في السنة النهائية من التعليم الثانوي (الشعبة الأدبية)

Abstract:

History proved that Arab writer when his nation falls in crisis doubled his effort to show his national identity forgetting his self problems.

This study comes to spot light on this vision through discussing the human dimensions which the Algerian literary text is rich in then and its relationship with national identity pillars starting from some literary texts which are supposed to be taught in final (literary streams) .

كثر الحديث عن مفهوم الآتجاه الإنساني في الأدب ، و تعدّد تحت عناوين كثيرة كالنزعة الإنسانية ، و المذهب الإنساني و الإنسانية في الأدب و الأدب الإنساني إلى غير ذلك من الأسماء و العناوين.

و في معجم النقد الحداثي تتردّد كلمة الإنسانوية بديلا من كلمة الإنسانية ، و لعل الكلمتين كلتيهما تصبّان في دلالة واحدة ، و على الرغم من أنّ هذه النزعة لم تكن وليدة تيّارات الأدب أو النّقد إلا أنّها وفدت إليه من نظرات فكرية و فلسفية و دينية لا يهمّنا الخوض في مصادرها و أصولها و اختلافاتها بقدر ما يهمّنا تحديد مفهومها في التوظيف النّقدي[1].

ولعلّ أوّل المذاهب الذي شغل بذلك هو المذهب الرومانسي . و قد جمعت في دلالاتها لدى منظّريها ما يمتاز به الإنسان من فضائل متمثّلة في الخير و المحبة و العدل

، و توق إلى الغايات النّبيلة السّامية بعيدا عن التعصّب و التّفرقة و الاختلاف ، و تطلّع الإنسان إلى عالم يسوده الإخاء المنزّه عن النّفعية المتجاوزة للحواجز و العقبات ، و هي تصطنع عالما يتسامى عن الفوارق و تمّحي فيه المذاهب ، و يعيش فيه النّاس في أخوّة تحت مظلّه إنسانية لا تستند إلى وطن أو قوم أو دين ، لكنّها تتطلّع إلى مصير مشترك و أهداف إنسانية واحدة[2].

أمّا المنحنى الواقعي فقد ارتبط كما هو معروف ارتباطا وثيقا بالاّتجاهات الاشتراكية التي جاءت في منتصف القرن العشرين إلى المنطقة العربية ، معزّزة لدى الإنسان العربي إحساسا بأنّها الوسيلة الناجعة للخلاص ، و لمحاربة الظلم و الاستكبار و التّفوق الاستعماري العالمي[3].

و قد أخذ هذا الاتّجاه يشيع بين الأدباء شيوع النّار في الهشيم ممّا أدى إلى تراجع التيار الرومانسي في أدبنا لصالح تيّار أدبي جديد ينسجم و النّزعة الفكرية الجديدة ألا و هو التّيار الواقعي . و مع هذا التّيار الواقعي الجديد تغيّرت نظرة الأدباء للحياة و رؤيتهم للواقع من النّزعة الفردية التي تعلي من شأن الفرد و تؤمن بالبطل المتفوّق على حساب الجماعة – وفق نظرة الرومانسيين – إلى النّزعة الواقعية التي تنتصر للجماهير ، و تعطيهم الأولوية في محاربة الظلم ، فآمنت هذه النّزعة بحقوق الإنسان و المساواة في الفرص بين بني البشر و البحث العميق في مشكلاته[4].

و هذه النظرة الجماهيرية نابعة من إيمان الفرد بأنّه غير قادر على مواجهة تحدّيات زمانه و شروطه الكونية وحده ، لهذا ينزع الإنسان لتأسيس مجتمع – وفق منظور ماركسي – يستطيع داخله أن يشبع حاجاته و رغباته ، و يفقد عندئذ الإنسان (الإنسانوية) حين يتعرّى من أطره الاجتماعية [5].

و لعلّ ما ذهب إليه بعضهم من أن حرية الاختيار هي أهمّ سمة تؤسّس إنسانوية الإنسان ، و أن الإنسان حين يفقد هذه الحرية و ينصاع إلى الأعراف و القيّم المكتسبة يفقد إنسانيته [6] ،لا يخالف رؤية ماركس كما بدا لبعض الدّارسين ، و لكن الحرية قائمة على وفق ما يقبله العقل و ليس بوصفه تحقيقا للأنا الفردية على حساب الجماعة على نحو فوضوي يلغي دور الآخرين ، ويدمر دوافعهم و حاجاتهم[7]

أمّا النّزعة الإنسانوية الحديثة ، إنسانوية (سيلو) فإنها لا تنظر إلى مفهوم خارج الثقافة الكونية ، لكنّها ثقافة تضع في حسابها خصوصية الثّقافات ، و دور كل ثقافة في تأسيس إنسانوية كونية ، و تؤكّد هذه النّظرة و تركّز على القضايا التالية :

1- ضرورة المساواة بين البشر
2- الاعتراف بالتّعدّدية الثقافية الشّخصية

3- أهميّة حرية التّفكير و الاعتقاد
4- رفض العنف [8]

على أنه ينبغي الإشارة إلى حقيقة مفادها أنّ الأدب إنساني بطبعه لأنه يصدر على الإنسان فيصوّر أحاسيسه و أفكاره و تطلّعاته غير أنّ مفهوم الأدب قد تغيّر و تطوّر كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

و النّزعة الإنسانية في أدبنا العربي الحديث ليست وليدة ظروف معيّنة أو نتيجة تجديد مقصود أو معتمّد في أدبنا ، و إنّما فرضها الواقع الجديد الذي أخذ أدباؤه يعانون فيه مشكلات الحياة و الإنسان على حد سواء ، طارحين جانبا شؤونهم الخّاصة و رؤاهم الشخصية و أحلامهم الذّاتية و أمزجتهم التي تملي عليهم ما شاءوا من صوّر و تخيّلات و أحاسيس ، متّجهين ناحية الشعب و المجتمع الذي يعيشون فيه و هو الذي تكالبت عليه الأدواء من فقر و جهل و استبداد .

وقف الأدباء في طريق هذه الأمراض و انبروا يدافعون عن حرية الإنسان و كرامته و مصيره ، وهم بذلك يرمون ترقيته و توعيته و الأخذ بيده إلى برّ الأمان ، يدفعهم إلى ذلك شعورهم بالانتماء إلى الوطن و الارتباط بالقوم و الجماعة .

و بالنّظر إلى واقعنا اليوم ، و دونما حاجة للتعمّق الطويل في الكتب التي تروي تاريخ نشأة الأمم و الكتب التي تناولت موضوع نشوء الظاهرة الوطنية ، نجد أنّ الوطنية رابطة نفسية و اجتماعية تنشأ بسبب اشتراك مجموعة من البشر في وطن واحد ذي حدود جغرافية محدّدة ، والبشر بفطرتهم يحبّون مراعي الصبا و الأرض التي تربطهم بتاريخ أجدادهم و أسلافهم. ثمّ إنّ العيش المشترك في رقعــة جغرافيــة واحدة يؤدي حتما إلى نوع من التّعارف و التآلف الاجتماعي (الوطني) بين النّاس .

و الوطن ليس مجرّد ارتباط الإنسان بإقليم من الأرض أو حيّز مكاني أو جغرافي فيها فحسب بل هو أيضا ارتباط و اتّصال بتلك الجماعة من البشر التي تستوطن نفس الإقليم ، و تحتلّ تلك الرقعة الجغرافية ذاتها .

ثم إن الجماعة البشرية التي اشتركت في الأرض و الإقليم تترابط فيما بينها بعدئذ بروابط عدّة منها : اللّغة و الدّين و العادات و التقاليد و التّاريخ المشترك و المصير المشترك . و من هنا نجد أنّ الوطنية و القومية وجهان لعملة واحدة هي ارتباط الإنسان ببيئته الطّبيعية و الاجتماعية حتّى أنّه في بعض اللّغات كالإنجليزية مثلا يعبّر عن الوطنية بنفس تعبير القومية باستعمال اللفظ (national) و ذلك من حيث كونهما رابطتا انتماء ، إلا أنّ هذا الانتماء يكون بالنّظر للوطن أو المكان في مصطلح الوطنية ، أما في القومية فيكون بالنّظر للجماعة البشرية (القوم) ، فإذا كان الوطن يمثّل الأرض التي

تعيش و تحيا فيها و التي عاش فيها أجدادك و قومك و هو المكان الذي يؤويك، فإن القوم هم جماعتك و شعبك ، و من ارتباط الإنسان بوطنه و قومه جاء مصطلح الهوية الوطنية .

و لفظ الهوية لغة من المصدر (هوى) الذي يعني (حبّ) ، فإذا كان الهوى يعني الارتباط بالمحبوب و الولاء له فإنّ الهوية تعني الارتباط بوطن ما يشدّ الإنسان إليه بخيوط غير مرئية .

أمّا اصطلاحا فتشير لفظة (هوية) إلى مجتمع ما أو مجموعة من البشر يشتركون في وطن بعينه ، يتمتّعون فيه بأوضاع (المواطنة) من واجبات و حقوق ، و يشتركون في خصائص عامّة واحدة تنبع من المكونّات الأساسية و الأوّلية للثقافة ، أي الأعراف و اللّغة و العادات الاجتماعية ، و أساليب ممارسة الحياة اليومية ، إضافة إلى انتمائهم لأرض و دولة و نظام سياسي و اجتماعي واحد[9] .

و الهوية بهذا المعنى " هي مجموعة السّمات شبه الثّابتة في الوجود التّاريخي لأيّ شعب ، وهي عمليّا الموّجه لفكر الإنسان و الوجه الّذي يقابل به الآخرين "[10] .

و في حياتنا المعاصرة تستوقفنا مجموعة من العوامل و المعطيات التي تبرز الدور الذي تقوم به الهوية الوطنية و القومية ، ففي عصر حافل بالاضطرابات و التّناقضات ، و في عالم متغيّر تسوده شعارات خادعة برّاقة لا تملك الأمّة العربية سوى هويّتها لتدفع بها هذا السيل الجارف الّذي يخدع البسطاء من أفرادها حينا باسم الحرية و الدّيمقراطية و حينا آخرا باسم العولمة . و قد استطاعت تبعا لذلك أن تحمي الأمّة العربية على امتداد تاريخها من الخضوع لسّلطان مستبدّ أو مستعمر ظالم ، و لولا اعتزاز العرب بهويّتهم لما استّطاعوا تحقيق حلم الحرية ، لأن الهوية القومية في نظرنا هي المحرّك الرئيسي لنضال الشّعوب[11] .

و قد أضافت الهوية الوطنية والقومية للأدب مضامين و موضوعات جديدة عبر تبنّي أفكار ذات اتّجاه قومي و إنساني ، و دعوات و مواقف إصلاحية سياسيّة كانت أم اجتماعية ، لأنّ " الهوية فكرة و معنى و عمل ليست مجرّد شعار يرفع و يدلّ على محلّ إقامة الفرد ' و لكنّها فكرة يترجمها العمل الإبداعي إلى معنى عبر تجربة إبداعية لغوية فيها من خصوصية الشعر و ذاتية الوطن ما يعمّق العلاقة بين الطرفين [12].

و يبرز الأدب و خاصّة الشعر منه كأحد العناصر الهّامة الّتي جسدّت خصوصيات القومية الوطنية ذلك أنّ بينه و الهوية علاقة جدليّة تتمثّل في ما قاله أجدادنا :" الشعر ديوان العرب " حيث كان سجّلا صادقا لحياتهم و تاريخهم .

و قد أسهمت القصيدة العربية – و ما تزال – في خلق الوعي النّفسي لدى الإنسان العربي بحقائق حياته و قضاياه ، و بما تبثّه من صور و أخيلة و معان تشخّص الداء و تستنهض وجدان الأمّة مثيرة همّتها[13].

و يلاحظ الدارس بعد القراءة المتأنّية للنّصوص الأدبية المقرّرة في السّنة الثالثة من التعليم الثانوي (الشعبية الأدبية) أنّها ولدت في رحم الأحداث الثورية في الجزائر و في العالم العربي عموما . و رغم ذلك " فإنّها تخلو من آفة المباشرة و التّقريرية ، حيث امتدت عميقا في جذور العالم الأدبي لتعبّر عن حس إنساني عميق ، و تجربة حيّة تنضج من الوجدان العربي ، ولا تقوم على الزخرف الخارجي المموّه ،أو على تراكمات لفظية في الذاكرة ، أو محصول ذهني منفصل عن الإحساس بإيقاع الحدث الذي يدور حوله النّص ، و ارتباطه بالسّياق الاجتماعي و الإنساني العام"[14] . و هذه النّصوص الأدبية تكتسب فاعليّتها الحيّة من استحضار كوامن الشعور بالمأساة في تاريخ الشعب الجزائري خاصة و العربي عامة .

و من يتابع جيّدا بعض تلك التجارب الأدبية يجد أنّ كتابها قد تأثّروا إلى حدّ ما بالمنجى الرومانسي من حيث دعوته إلى المحبّة و الخير و التّسامح و العدل و نبذ التّعصب و التّفرقة و رفض السيطرة و التّسلط ، و نجدهم من جانب آخر قد تأثروا بالاتّجاه الواقعي في الأدب ، و هو الذي قادهم في النّهاية إلى النزعة الإنسانية التي لا تتعصّب لجنس أو هوية ، و يرى في الجماهير قوّة في تغيير الواقع، و ينتصر بحكم ارتباطه بحياة الناس و أوضاعهم الاجتماعية للإنسان عامة .

لذلك كلّه ألفيناهم ينحازون إلى معاناة النّاس في الجزائر و في غيرها من البلدان رافضين اضطهاد الإنسان في أي موقع من الكون بغضّ النّظر عن دينه أو عرقه ، و بذلك تخطّى الأدب عندهم المستوى المحلي إلى مستوى الوجود الإنساني ،و وردت في صيّغ التعميم في كتاباتهم الكثير من أسماء الكائنات الطبيعيّة من أحياء أو جمادات (إنسان ، طفل ، خلجة ثائر ، الطير ، الربّيع ، الأرض ، الزهر ، الحياة)[15] دون وصفها بما ينمّ عن البيئة الجزائرية و التي بها تمتاز عن غيرها من البيئات .

و لعلّ قراءتنا المتواضعة لهذه النّصوص الأدبية تجعلنا نرجّح أن تكون مدرارات تلك التّجارب الإبداعية و بواعثها و الرؤى التي تقف خلفها هي الانتماء إلى الإنسان ، لأنّ الذي يثير الموقف لدى كتّابهـــا و يدفعــهم للكتــابة مــا يرونه من ظلم واقع على الإنسان سواء أكان جزائريا أو عربيا أو إنسانيا(نسبة إلى الإنسان خارج هاتين الدائرتين) .

و قد انطلق كتاب هذه النّصوص من تعاطفهم مع الإنسان في مواجعه و هزائمه ، و انكساراته ، و احترام حرياته و حقوقه ، وحين وقفوا على المعاناة التي تعيشها

شعوبهم كان حريّا بهم أن يتبنّوا موقف الإنسان في وطنه قبل أيّ تجربة إنسانية أخرى ، لأنّه ليس من المعقول أن يدافع هؤلاء عن قضايا الإنسان في إفريقيا و أمريكا اللاتينية أو أيّ جزء في العالم و يتناسوا تجربة أقوامهم ، وهي التّجربة الأكثر بؤسا و شقاء من غيرها .

غير أن الانتماء إلى هذا الوطن لم يغلق عن هؤلاء رؤاهم ، إذ امتدوا بها إلى الوطن العربي الأوسع معلنين انتماءهم إلى قضايا الإنسان فيه ، صارخين في وجه الطغيان و الظلم الذي يلحق بإنسانه سواء على أيدي حكّامه أو على أيدي أعدائه مدافعين عن المظلومين و المستضعفين في ساحاته و الصادقين مع أنفسهم و أمّتهم ، و تنسحب رؤاهم إلى بعد إنساني يتعاطف مع قضايا الإنسان حيثما وجد و قد يصل حتّى إلى اليهود أنفسهم و هم يتحوّلون إلى رماد في محارق النازيّة في إطار واحد هو الانتصار لإنسانية الإنسان ضمن دوائر الانتماء الثلاث (الوطنية – القومية – الإنسانية) .

و لعلّ قصيدة " الإنسان الكبير " لمحمد الصالح باوية واحدة من النّماذج الشعرية التّي تؤكّد ما ذهبنا إليه ، يبدو ذلك جليا من خلال عنوانها الّذي يحمل دلالات كثيرة فإنسان محمد الصالح باوية كبير ، وما دام إنسان هذه القصيدة كبيرا فحتما أنّ ثمّة إنسانا صغيرا و شتّان بين الأوّل و الأخير .

إنّ أنسان محمد الصالح باوية كبير بطموحاته ، بمشاريعه المستقبلية ، بما تحمله شخصيته من مقوّمات تجعل منه إنسانا بتلك السّمات ، و إذا كان من الصّعوبة أن تكون إنسانا فما بالك أن تكون إنسانا كبيرا تحمل همّا و فكرا تدافع عنه و تناضل لأجله ، و تسعى لنصرته و في ذلك نصرة للإنسانية و استشراف لغد أفضل .

يقول الشاعر :

قال شعبي يوم وحّدنا المصير :

أنت إنسان كبير ...

يا جراحي

أوقفي التّاريخ أنا نبع تاريخ جديد .

يزرع الكون سلاما و ابتساما و بطولات شهيد[16]

ضمّن الشاعر هذه القصيدة التّي حمّلها حلمه الكبير حين ربط بين قضية وطنه (الثورة الجزائرية) ، وقضية الوحدة بين مصر و سوريا في سنة 1958 قيما إنسانية

شتّى كالسلام و الاتّحاد والحب و الحياة و الحرّية و المقاومة و التّضحية في سبيل الوطن ، و نبذ الاستعمار و التّسلط ، و يستمد مشروعية ذلك من مقوّمات الهوية الوطنية و القومية الّتي يأبى الشاعر لها أن تداس أو تدنّس ، و الثمن من أجل ذلك ليس زهيدا إنّه الحرب و الثورة .

لذلك لا يمكن أن ننفي عن الشعر الجزائري الثوري رغم إنسانيته دوره في الحفاظ على مقوّمات الهوية الوطنية و هو الأمر الذي اقترن بالتّحريض ضدّ الانبطاح .

و قد فهم شعراؤنا ذلك و عرفوا أنّ الفن يجب أن يؤول مآل السّلاح ، فانخرطوا بكلّ تلقائية باحثين على التموقع خارج مهازل الليل البشري ، و من ثمّة فقد تجاوزوا اللحظة الآنية إلى وجود حضاري تصونه مرجعية مثالية ذات نزعة إنسانية محضة .

يقول الشاعر محمد الصالح باوية :

يا جراحي ..

في دمي كنز السنابل

ينحني شوقا إلى صوت المناجل .

ينحني للشّمس للفجر إلى خلجة ثائر .

ينحني شوقا إلى قبلة طفل و زغاريد و شاعر .

يا جراحي

أوقفي التّاريخ أنا حدث ثر و كون لا يحسد

يغرق التّاريخ و الكون يجرح يستجد

فبلادي ثورة بكر .. بأرضي بسمائي بكياني تستبد

ومن خلال هذه الأبيات يستشف القارئ ما يحس به الشاعر من توق للحرية و الانطلاق و من حلول في الأرض و الوطن، و هو إحساس ممزوج بحماس كبير هو أشبه بالإعصار الذي يهز كيان الشاعر هزّا و يدفعه دفعا إلى الأمام و يقطع عليه كل سبيل للرجعة و التخاذل ، فقد ملك عليه الوطن و الشعور العميق بالانتماء إليه زمام أمره فأصبح خاضعا منقادا إلى هواه معتزا بكل ما يمت للوطنية و الوطن بصلة ، و كانت

كلماته صدى لحياة الشعب الجزائري ، وعنصرا مهما من العناصر التي تذكي و قود الهوية الوطنية و القومية على حد سواء لدى أفراده ، لأنه ينحاز بحسب ما يتراءى لنا إلى معاناة الإنسان في الجزائر في هذا العصر ، و في غيرها من البلدان رافضا للاضطهاد و الاستبداد بكل صوره و أشكاله متخطيا في أحايين كثبره وجوده المحلي إلى وجود حضاري تصونه مرجعية إنسانية تتعاطف مع قضايا الإنسان عامة .

و هاهو الشاعر يواصل قائلا :

قال شعبي يوم وحّدنا المصير .

أحبس السّحب .. هنا بحر و أمطار سخية .

وربيع صاغه طفل لشعبي و صبية

أوقف اللحظة أنا لحظة كبرى غنية

لم تزل تنثر في الكون حكايا و هدايا عربية

أطفئي النيران أنا قلب بركان جريء للأساطيل العتيقة

للطّواغيت ، لأصنام غبية ..

أسكت الطير

فأنا خلجة الإنسان تشدو في عروق عربية .

تعبر الأحلام للشمس السخية

يا رفيقي أنا إنسان صراع

قيضتي هذي سماء و تراب و عصارات متاعي

و بقلبي ثورة تمتص معنى العاصفات .

توقظ الأرض بفأس و لهاة

و تعيد العطر كلّ العطر للزّهر المدمّى للحياة [17]

يحاول الشاعر من خلال ما تقدّم أن يرسم لنا لوحة فنية تعبّر بصدق عن واقع الثورة الجزائرية بكل قيمها الإنسانية كالسلام و الحرية و الحياة الكريمة و المقاومة و

البطولة و التضحية و الفداء ...بلغة ذات دلالات رمزية ، يؤكد ذلك ما نعثر عليه في ثنايا النص من ألفاظ ذات شحنات عاطفية و نفسية متناقضة تعبر عن إحساس الشاعر المتناقض بين الابتهاج بالثورة و الاشمئزاز من المستعمر و ليس من باب الصدفة –إذا – حين جمع الشاعر بين الحب و الحرية بتلك اللغة التي مثلت طابع البيئة المحلية إلى حد بعيد ، لأن الذي يشغل الشاعر و يستوعب تجربته الفنية هو الوطن و الانشغال الشديد بهمومه ، وهموم البيئة التي يضطرب فيها أبناؤه ، إنه التبشير بالحرية و البحث الدائب عن العناصر الأصيلة التي تشكل الشخصية الوطنية .

ومن الشعر إلى النثر حيث نلتقي مع الكاتبة زليخة السعودي في قصتــها " **الجرح و الأمل** "[18]التي حاولت من خلالها أن تسهم في بلورة القيم الوطنية الإيجابية المتمثلة في رفض الذل و الهوان و الظلم و الإشادة بالبطولة و التضحية انتصارا للشرف و السيادة . و هذه القصة برغم ما فيها من قيم إنسانية نبيلة كالوفاء للأهل و الأوطان و مقاومة الاستعمار، فإنها تنمّ عن روح وطنية ووعي عميق بالقضايا الوطنية ، فهي تعالج قضية الهجرة التي فرضتها ظروف الاحتلال و ما نجم عنها من آثار مأساوية في كثير من الحالات كالفقر و الجوع و التشرّد...

كما تندد الكاتبة زليخة السعودي من خلال هذه القصة بالظلم الإجتماعي و التفاوت الطبقي ، و تسعى إلى إبراز البطولات و التضحيات ومقاومة الاستعمار من خلال شخصية أحمد الذي آثر الاستشهاد في سبيل الله نصرة لوطنه ووفاء للعهد الذي قطعه على نفسه مع إخوانه المجاهدين إحقاقا للعدل و قضاء على الظلم و انتصارا و إنصافا للقضية الوطنية .

و تقدم لنا قصة **"الطريق إلى قرية الطوب"** لمحمد شنوفي[19] ، التي تتناول فترة من فترات الاحتلال الفرنسي في الجزائر صورة عن الغريب المحتل مجلّية انعكاسات تلك المرحلة العصيبة في حياة الشعب الجزائري ،مشيدة في الآن ذاته بمقاومته و ثورته ، مقدمة نماذج مثالية في التضحية و الفداء ، وهي لا تخلو من بعض القيم الإنسانية النبيلة التي هي مطمح أي إنسان في كل زمان ومكان خاصة عندما تكون الحرية و هي أغلى و أجلّ قيمة على رأس تلك القيم التي يحلم بها الشعب الجزائري ، و في نفس الوقت هي حلم كل الشعوب المضطهدة و المستعمرة على حدّ سواء ،و في علاقة الحرية بمقومات الهوية الوطنية أكثر من نقطة تقاطع ، فالحرية هي سبيل إلى الحياة الكريمة ، و حرية المعتقد و الاعتزاز و المجاهرة به دون خوف أو تردّد، ثم إنها سبيل إلى المحافظة على اللغة الوطنية و الاعتزاز بها قولا و فعلا ، إنها في عبارة موجزة استرداد لكل مقومات السيادة الوطنية ، و هو الأمر الذي لا يمرّ إلا عبر مقاومة الاستعمار و الظلم .

و قد اقترنت هذه الحرية و هي مطلب إنساني بالدين ونصرته ففي رواية **"الأمير** " لواسيني الأعرج نقرأ قوله على لسان أحد شخصياته و هو سيدي مبارك حين طلب منه المحتل الاستسلام و الالتحاق بخدمة الفرنسيين : " من جبل الدخلة إلى وادي الفضة يمتد سلطاني ، أجاهد و أعفو عند المقدرة . مقابل هذا السلطان الذي أمارسه لنصرة دين الله و سيدي السلطان عبد القادر ، فماذا تضيف لي عندما أسلم نفسي لك ؟ أرضي التي سأسترجعها بالبارود و النار كما سرقت مني؟ الدراهم و لقب يتبعني إلى القبر بالخيانة ؟هل تبقى شهادة عظيمة مثل هذه عندما تصبح ظروف العيش قاسية ؟ هذا هو المثل الأعلى ما عدا ذلك كلها معارك نربح بعضها و نخسر بعضها الآخر ؟"[20].

و تطالعنا مسرحية " **لالة فاطمة نسومر** " المرأة الصقر بطائفة من القيم الإنسانية النبيلة متمثلة في الخير و التسامح و التكافل الاجتماعي ، استمدها المؤلف إدريس قرقوة من عادات و أعراف أهل ومجتمع الريف في الجزائر ، و هي تقوم بدورها على أسس و ثوابت يحكمها الوازع الديني ، يعبر عن ذلك و يؤكده موقف البطلة لالة فاطمة ردّا على اتهامات زوجة أخيها أمينة حين ادّعت أنها مرّغت رأس أخيها و ذويها في الوحل حين تركت البيت و استرجلت تقود الرجال في ساحات القتال رغم أن الأولى بها بيتها و زوجها و أطفالها " لا لن أستطيع ذلك فقد بعت نفسي لله ، و لن أرجع عن بيعي و الجهاد سبيل إلى مرضاته و رحمته "[21]

ختاما وبعد هذه الإطلالة الخاطفة على بعض النصوص الأدبية الجزائرية المقررة في السنة الثالثة من التعليم الثانوي (الشعبة الأدبية) يمكن القول إن الأدب الجزائري قد استطاع أن يكون صدى لحياة الشعب الجزائري ، وعنصرا مهما من العناصر التي أذكت و قود الهوية الوطنية و القومية على حد سواء لدى أفراده ، فقد انحاز أدباؤنا في هذا العصر إلى معاناة الإنسان في الجزائر ، و في غيرها من البلدان معلنين رفضهم للاضطهاد و الاستبداد متخطين الوجود المحلي إلى وجود حضاري تصونه مرجعية إنسانية تتعاطف مع قضايا الإنسان عامة و تنتصر لإنسانيته ضمن دوائر الانتماء الثلاث (الوطنية – القومية –الإنسانية).

هوامش البحث :

[1] - مفيد محمد قميحة ، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1،1981،ص44
[2] -نفسه ، ص44
[3] - نفسه ، ص49
[4] - نفسه ، ص50
[5] -ميجان الرويلي و سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،بيروت ، ط3،2002،ص51
[6] - نفسه، ص51
[7]- سامح الرواشدة ، المنحى الإنسانوي في شعر توفيق زياد ، رابطة الكتاب الأردنيين ، حزيران ،2005، ص86
[8] - ميجان الرويلي و سعد البازعي ،ص57،58
[9]- أسامة الألفي ، الهوية القومية في الشعر العراقي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، دط،دت، ص17،18
[10] - نفسه ، ص18
[11] - نفسه ، ص23
[12]- نفسه ، ص27
[13]- نفسه ، ص26
[14] -حسن فتح الباب ، سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2007،ص84
[15] - ينظر : قصيدة "الإنسان الكبير"لمحمد الصالح باوية، الجديد في الأدب و النصوص و المطالعة الموجهة للسنة الثالثة من التعليم الثانوي لشعبة الآداب و الفلسفة، ص116،117.
[16] -نفسه ، ص116
[17] -نفسه ، ص117
[18] -نفسه ، ص125
[19] -نفسه ، ص133
[20] -نفسه ، ص144
[21] -نفسه ،ص152